مجنون ... ديتشابهون !

قصة بقلم أديب نحوي

منذ اليوم الاول الذي التحق فيه احمد مداراتي بخدمة العلم ، وابوه الحاج امين ، صاحب المدار الفوقاني في حي باب المقام بحلب ، يسأل زبائنه على باب المدار كل صباح : « هل شاهدتم احمد .. بملابس العسكرية ؟ » ثم يهتف بهم بصوته الخشن بعد ان يزن لكل منهم رطلين او ثلاثة ارطال من النشا الابيض : « ياعيني عليكم .. ماعندكم خبر ... اين ذهب احمد ؟. » ويهوي بيده على اكتافهم بضربة تودد لطيفة وهو يردد : « ياعيني .. عليكم ..! »

ثم انه اخذ يسأل في اليوم التالي كل من يصادفه من اولاد الحارة وهو نازل من المدار نحو المقهى ليدخن النرجيلة : « من رأى منكم احمد.. بملابس العسكرية ..؟ » كان يلقي هذا السؤال وهو مبتسم ومعتز ، بل وهو متكبر في بعض الاحيان وفي شيء من التحدي .. « هل رأيتم ابني احمد ؟ » فمن قائل له : « اين نراه ..؟ » ومن متسائل : « وكيف نراه؟ »

وكان لابد من ان يجيب في كل مرة وهو يبتسم ملء وجهه الكبير :

ـ العمى بقلب شيطانكم .. الا تعرفون اين ترون احمد .. ولا كيف ترون احمد ؟. العمى .. ماعندكم خبر ..؟ الا تعرفون ياجماعة .. ان ابني احمد صار في الجيش ..! اليس لكم عيون ..! انظروا في الجيش ترون ابني احمد .. انظروا لماذا اعطاكم الله النظر ..!

ثم يستطرد ، وكانه يحدث نفسه هذه المرة ولكن بصوت مرتفع كان يسمعه جميع رواد المقهى والمارة في الطريق :

ـ لو انكم شاهدتموه بملابس العسكرية .. يا الله .. كم هي لائقة عليه ...!

ثم ... وبدون سبب كان يضحك وهو يهتف :

ـ لو انكم شاهدتموه عندما اعطوه الملابس ، قاس اول بنطلون .... واذا به قصير .. فقاس الثاني واذا به ضيق قال له الملازم : من اين لك هذا الطول .. وهذا العرض .. ليس عندنا .. ملابس بقياسك !

وهنا كان لابد له من ان ينفجر في الضحك وهو يضرب بيده الغليظة على ساقه الممدودة امامه ، ثم يصيح :

ـ مسكين هذا الملازم .. لم يكن يعرف انه ابني .. انه ابن الحاج امين مداراتي ..!

وما ان مر يومان حتى ابتدأ يقول للحاج شريف بدوي وهو يشتري من عنده الخضار والفواكه كل صباح :

ـ لو كان ابني احمد هنا ... لاشتريت بطيختين زيادة .. ورطلا ضافيا من الخيار .. لقد كان وحده ياكل اكثر مما نأكل جميعا . الله يساعدهم عليه في الجيش .. من اين ياتون له غدا .. بالطعام .؟

واخذ يسهر كل مساء مع سليم حنون الحارس الليلي المسن .. قاعدين على كرسيين من القش في مدخل الحارة وهما يتحدثان :

ـ عندما يعود ابني احمد في المأذونية ، فلا داعي لان تسهر في الحراسة .. اذهب الى بيتك للنوم ، فلن يتجاسر احد على الخروج للسرقة ، عند وجود ابني احمد في الحارة ... اذا صاح ابني بهم ... هربوا جميعا ولو كانوا .. مئة حرامي ...

ثم يغمزه بعينه عندما يراه وقد ابتدأ بالابتسام ، ويهمس اليه بصوت منخفض :

ـ وبذلك تفرح ام الاولاد كثيرا .. مادمت ستقضي الليل كله عندها في البيت .. ايه.. اضحك في سرك.. خدمة ماصارت لغيرك من الحراس..!

وكان سليم حنون يتابع الابتسام وهو ينظر الى الحاج امين مداراتي محدثا نفسه : ما اكثر اعتداد هذا الرجل بنفسه .. وبابنه ..؟ وهكذا كان كثيرون من الناس ، يعتبرون الحاج امين .. دعيا ومغرورا ، وخصوصا في تلك الايام التي اعقبت التحاق ابنه احمد بخدمة العلم ، فاذا واجهه احد اصحابه باقوال هؤلاء الناس ، اصفر وجهه واخذ يرتجف ، ثم انه لابد من ان يصيح بمن يحدثه غاضبا :

ـ انا رجل اكثر منهم جميعا..وابني يساوي ثلاثين من ابنائهم ..امامك حلب كلها .. هات لي منها عشرة شباب مثل احمد وانا استطيع ان اكسر بهم .. جيش اسرائيل ..

ولكنه سرعان ماكان يهدأ ويعود الى المقهى ليجلس صامتا عدة ساعات وهو يدخن نرجيلته ، فما ان يأتي وقت العودة الى المنزل حتى يبدو حزينا ومهموما..فاذا مانهض متوجها الى البيت ووقف امام الباب الخشبي يدير في القفل المفتاح النحاسي الكبير .. شعر بكآبة مفاجئة تطغى على نفسه واخذ يفكر : الان تأتي امه ، لتسهر الليل كله فوق رأسي نادبة باكية..! وكان عند ذلك يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم .. ويخطر له فورا : انه وهو صاحب اهم « اوضة » في الحارة لتقديم القهوة المرة الى اهل باب المقام .. واكرم من فتح منزله في الحي منذ ثلاثين عاما ، للضيوف.. مسبحا بنعم الله وافضاله ، واشجع « عكيد » منذ ايام الشباب في سبع حارات من هذا الحي الكبير باب المقام ،انه..اسهل عليه ان واجه ... ولو .. بالعصا .. اي عدد من الرجال المسلحين .. من ان يواجه .. زوجته ام احمد ، بدموعها وبكائها على ابنها الذاهب الى خدمة العلم ..

كان يخيل اليه .. انه عندما يكون بمواجهة الرجال ، فهو يستطيع ان يقاتلهم ولو كانوا مئة الى ان يسقط امامهم او يهزمهم .. اما عندما يسمع عويل زوجته ام احمد ، فهو يشعر بانه يموت ببطء . وجبن .. وقهر .. بدون اي قتال او دفاع عن النفس .. يشعر بانه يموت .. خنقا .. كان حبلا غليظا يشد على رقبته .. بتمهل .. واصرار . واناة، حتى يكتم له ، بدون اي مقاومة ، اخر انفاسه ..

ظل الحاج امين ، اكثر من اسبوعين ، يحدث اهل الحارة عن ابنه احمد ، صباح مساء ، فلما تعب منه اصحابه ، وظنوا انه ... قد تعب ايضا ، نزل من البيت الى المقهى ذات صباح وهو يقول لهم :

ـ هل سمعتم في الاذاعة عن الاستعدادات التي تعملها .. الحكومة .. للاحتفال بعيد الجلاء ..؟

ثم اخذ يقول لكل من يراهم في مقهى حمدو قنينة :

ـ لا تنسوا ان تذهبوا بعد غد بمناسبة عيد الجلاء ، لتتفرجوا على احمد وهو يمر مع العسكر في الاستعراض .. يجب ان لا تفوتكم الفرصة ، لان استعراض الجيش في عيد الجلاء اهم واكبر من كل استعراض ..

وقبل ان يجيبه احد .. كان يبتدىء في وصف السرادق الذي شاهده منصوبا في مكان الاحتفال :

ـ لقد ذهبت اليوم الى جسر الناعورة ، وتفرجت على عمال البلدية .. يا الله .. تقول .. مثل النمل .. ثلاثمئة ، اربعمئة ، كل واحد منهم ، بيده مطرقة .. طاق طيق .. طيق طاق .. وهم يدقون الواح الخشب والعواميد ، وينصبون السقف ويعلقون الاعلام .. يا الله .. لو شاهدتم ما اكبر ذلك المحل .. احزروا كم يسع .. والله،

انه يسـع الف كرسي خيزران .. ويمكن .. اكثر .. !! واستغرب اصحابه منه ذلك الخبر ، وفكروا اول الامر ان الرجل قد فقد عقلـه، فاخذوا يسألونه متعجبين :

ـ كيف يشترك احمد في الاستعراض ولم يمض على التحاقه بخدمة العلم سوى اسبوعين ..

فكان يجيبهم وهو يرفع راسه باعتزاز :

ـ هل تظنون ان احمد .. مثل غيره من العسكر، محتاج للتعليم..! ابني احمد لا يحتاج للتدريب ، انا علمته كل شيء ..

ويسأله عند ذلك احد الشباب متعجبا :

ـ انت .. علمته يا ابا احمد ..!!

فتسنح له الفرصة ليجيب فورا :

ـ طبعا .. انا علمته .. ومن يعلمه غيري .. انا عسكري من ايام (سفربرلك) بقيت عسكري اربع سنين ، حتى صرت برتبة جاويش .. اسفي عليكم يا شباب لانكم لا تعرفون العسكرية ..

ويخطر لاحد المستمعين ان يعترض قائلا له :

ـ علم اليوم غير العلم القديم يا ابا احمد ..

وعند ذلك كان ينفجر غاضبا :

ـ انا اعلمكم واعلم اجدادكم واباءكم .. العسكرية .. انا .. حضرت عشرين موقعة من اول يوم في الحرب حتى اخر يوم ،.. من داخل بلاد المسكوف حتى اخر بلاد العراق ..!! ثم يهدأ قليلا ..حسب عادته .. ويقول متمهلا ولكن .. بضيق وتبرم :

ـ سترون صـدق كلامي .. اذهبوا .. يوم الاستعـراض .. وستشاهدون ابني احمد .. يمر في اول صف .. من العسكـر ...

اتى يوم الاحتفال ..اخيرا .. وكم كان حزن اهل الحارة بالغـا لان الحاج امين بين كثرة ما قعد امام السرادق عند جسر الناعورة .. وهو يتفرج على عمال البلدية وهم يعلقون الاعلام ويفرشون السجاد ، اصابته نوبة برد اليمة .. فسقط مريضا .. وكان يوم الاستعراض طريح فراشه لا يستطيع حراكا .. قال للشباب الذين مروا لزيارته صباح عيد الجلاء وهو يعطيهم ورقة نقدية :

ـ سلموا لي على احمد واعطوه هـذه الخمس وعشرين ليرة سورية ..

ثم مد يده فاخرج من تحت الفراش صرة واعطاهم اياها وهو يقول:

ـ اعطوه هذه الصرة ايضا .. ولكن .. لا تقولوا له .. انهـا من عندي .. ان فيها سجاير ، وهو لا يدخن امامي ابدا ،.. ويظـن باني لا اعلم باعتياده على التدخين ..

فلما ذهبوا .. وعاد قسم منهم حوالي الظهر وهم يقولون له : بأنهم لم يشاهدوا ابنه في الاستعراض .. ادار فيهم عينين سوداوين ساخرتين ، وراح يبرم شواربه وهو يضحك من اعماق قلبه .. قائلا لهـم :

ـ يا عيني عليكم ، كيف .. لم تشاهدوه .. اليس هو فـي الجيش ، وله بارودة خاصة به .. فكيف لا يخرج مع العسكر ليمشي على ضرب (الزيكة) .. في عيد الجلاء ، يخرج جميع العسكر .. لا بد انكم ، لم تنظروا جيدا .. انا لم اكن معكم ، ولكن .. بالعقل.. اعرف انه ، لا بد من ان يكون مع العسكر ، وهـم يمشون على ضرب (الزيكة) في جادة الخندق .. كان ابني موجودا .. يا شباب .. ولو انكم .. لم تشاهدوه ..!

ثم خطر للحاج امين عند ذلك ، وهو في فراشه يمعن التفكير في هذا الموضوع : انه يمكن .. ان يكون هؤلاء الشبـاب محقين .. يمكن .. ان لا يكونوا قد شـاهدوا احمـد بالرغم من وجوده في الاستعراض .. وهم معذورون .. اذ ان جميع الجنود .. متشابهون، جميعهم .. شباب مثل الورود .. يلبسون بعضهم مثـل بعض .. وعندما يسيرون في الاستعراض الى جانب بعضهم .. لا يمكن ان يفرق الناس بينهم .. ابدا ..!

وخطر له : انه كم مرة سار في الاستعراض عندما كان جنديا في الجيش العثماني ، واخذوه الى العراق .. مرة في الموصل ومرة في بغداد .. وبالرغم من ذلك .. فانه كان يمشي مع جميع العسكر.. وحيدا .. دون ان يشعر بأن احدا من الناس .. يميزه عن غيره من الجنود الذين كانوا يسيرون الى جانبه ..

ثم خطر له : ان السبب في ذلك لانه لم يكن له اب بـين النـاس الذين كانوا يصطفون في الطريق ليتفرجوا على العسكر .. ولا ام.. اذ لو كان له اب او ام هناك ، لميزه عن بقية الجنود بالرغم من انه يلبس كما يلبسون ويسير في وسطهم ، بحيث يختفي عن انظار الناس الواقفين على الجانبين . خيل اليه .. عند ذلك .. انه فهم السبب الذي منع شباب الحارة من رؤية ابنه بين جنود الاستعراض .. ذلك انه كما اتضح له الان : لا بد حتى يرى الناس جنديا .. بعينه .. وهو يمر في الاستعراض .. لا بد من ان يكون .. ابوه .. معهم حتى يرشدهم اليـه .. فالجنود .. في هذه الحـالة .. فقط .. لا يتشابهون .. عندما يكون اهلهم : آباؤهم وامهاتهم والاطفال الصغار.. والاخوة الكبار .. يصفقون لهم وهم واقفون على رصيف الشارع .. ويشيرون اليهم صائحين .. بلسان الاب مرة : « انظروا الى ابني » وبصوت تخنقه الدموع .. ومرة بلسان الطفل الفرح .. هو يهتف ببراءة : « هذا .. بابا .. شوفوا .. بابا » وبلسان الاخ الكبير.. مرة .. وهو يتمتم باعتداد وبشيء من الكبرياء : « انظروا الى اخي .. الذي يمشي ثالث عسكري في الصف الثاني .. من هذه المفرزة التي تمر .. انظروا اليه .. انظروا .. »

خطر كل ذلك للحاج امين .. ثم راح يفكر : في غير هذه الحالة لا يمكن لاولاد الحارة ان يشاهدوا ابني احمد .. ان والد الجنـدي يرى ابنه بدون اي جهد اثناء الاستعراض .. اما الناس الاخرون فلا

صدر حديثا

أبيات ريفية

بقلم عبد الباسط الصوفي

قصائد رائعة للفقيد الذي

كان نسيج وحده في عالم الشعر

الثمن ٣٠٠ ق.ل ـ ٣٧٥ ق.س

دار الآداب

يمكن ان يشاهدوا اثناء الاستعراض سوى الجنود المتشابهين .. دون ان يميزوا واحدا منهم عن الاخرين .. لانه ليس لهم اولاد في الجيش.. يمشون مع العسكر على ضرب المزيكة في جادة الخندق يوم عيد الجلاء.. وعند ذلك قال لنفسه : لو كنت معهم .. لاريتهم اياه بكل سهولة .. ولكني لم اكن معهم .. فمر دون ان يشاهدوه .. وهم معذورون لانه ليس ابنهم .. انه ابني انا .. وانا هنا في الفراش.. فمن اين لهم ان يشاهدوه .. بمفردهم .. وبدون مساعدتي ..

وعند ذلك .. راح يحدث نفسه قائلا : لا بد ان احمد كان يشعر اليوم وهو يمر في الاستعراض بأنه وحيد .. لانني لم اكن موجودا بين المتفرجين ..

وعندما انتهى الحاج امين من هذا التفكير .. ابتسم سعيدا بما وصل اليه من نتيجة ، وكان اخر فوج من ابناء الحارة قد عادوا من مكان الاحتفال وهم يؤكدون جميعا انهم لم يشاهدوا ابنه احمد .. فازدادت ابتسامته اتساعا .. وحلت في عينيه هذه المرة بدلا من نظرته الساخرة ، نظرة اشفاق ورثاء ، فهو الان وقد عرف السبب الذي منعهم من مشاهدة ابنه في الاستعراض .. لم يعد يتضايق من اجاباتهم .. لذلك فكر قليلا بهدوء : لن اجادلهم في ذلك .. فليقولوا ما يشاءون .. انهم جميعا مساكين لانه ليس لهم اولاد في الجيش يحملون البنادق ويمشون مع العسكر في جادة الخندق يوم عيد الجلاء .. يا لهم من مساكين ..

ثم خطر له بعد ذلك ان يمازحهم .. فالتفت اليهم وقد عادت الى عينيه نظرة الاستخفاف .. واخذ يقول لهم وهو يمسح على شواربه . مبتسما :

ـ الحق .. معكم يا شباب .. يمكن ان احمد لم يخرج للاستعراض ..

فلما ندت عنهم صيحة مشتركة :

ـ هاها .. ارأيت .. نحن لا نكذب عليك ..

قاطعهم مستطردا :

ـ لم يخرج .. لانه مشغول ..

فلما قالوا له : مشغول بماذا ..؟

اخذ يضحك منهم .. ويستغرق في الضحك .. ثم يتمتم من خلال ضحك متصل :

ـ مشغول بتعليم الجنود الاغرار .. يا عيني عليكم . واحد مثل ابني احمد .. يمكن ليس عنده وقت ليخرج في الاستعراض ..

الملازم يستفيد منه .. ليعلم الجاهلين من امثالكم الذين لا يعرفون يمينهم من شمالهم .. يا عيني عليكم .. غدا .. تذهبون لخدمة العلم وتجدون ان احمد قد سبقكم .. وصار .. رئيسا عليكم جميعا. يكون صار ملازم .. بنجمة .. ويمكن .. بنجمتين .

ثم مرت تسعة شهور وعشرة ايام قبل ان يعود احمد في اجازة الى بيت ابيه الحاج امين مداراتي .. تسعة شهور وعشرة ايام .. ظلت ام احمد تحسبها اسبوعا بعد اسبوع حتى بلغت اربعين جمعة.. وكل جمعة محسوبة بخرزة واحدة من مسبحتها البيضاء الطويلة .. خرزة الى جانب خرزة .. حتى بلغت الاربعين .. خرزة .. محجوزة لوحدها في رأس المسبحة الى جانب المئذنة .. بعقدة خيط صغيرة من القنب ..

ثم عاد احمد .. فجاة .. ذات يوم الى الحي .. رآه شباب الحارة ذات صباح وهو مقبل من شارع تحت القلعة ، يخبط الشارع بحذائه الضخم .. في خطوات قوية منتظمة ، وقد اكتسب وجهه لون النحاس الاحمر .. فركضوا نحوه من كل صوب واخذوا يعانقونه، وطار الخبر الى الحاج امين فنزل من المدار الفوقاني الى ارض الحارة واخذ ابنه بين ذراعيه وبقي عدة دقائق لا يستطيع الكلام .. وهرعت ام احمد ، حافية القدمين .. فاستقبلته عند مطلع الدحديلة ، وهي تشرق بدموعها محاولة منع نفسها من معانقته امام الناس ، بينما جاراتها يزغردن من وراء ابواب المنازل الموارية . مهنئات .. وشمل الحي .. كله .. فورا .. فرح فجائي لا عهد له به حتى في ايام الاعياد ، واخذ الحاج امين ، وقد زال عنه تأثير المفاجاة .. يصيح بكل من يلتقي بهم من اهل الحارة : العشاء عندي الليلة يا شباب .. الله يفرحكم بالاحباب .. آمين .. يا رب ..

ويا لهذا الذي جرى في بيت الحاج امين خلال ايام اجازة احمد.. الثلاثة .. عشرون رأسا من الغنم ظل الحاج امين يذبحها على باب منزله .. صباح .. مساء .. والابواب مفتوحة على مصراعيها حتى منتصف الليل ، واولاد الحارة داخلون .. خارجون .. يشربون العرق من (لقن) الغسيل المخبأ في المطبخ فوق كيس الطحين .. ثم يرقصون بالسيف والترس على دقات طبل ابي علوان .. والحاج امين يجامل الشباب .. فيغض النظر عنهم .. كلما ذهبوا الى المطبخ ، متظاهرا بانه لا يعلم .. بأمر (لقن) العرق المخبأ هناك .. بينما انه هو الذي دفع من جيبه .. ثمن ثلاثة (تنكات) من العرق اشتراها من عند عبود طويل في بستان كل آب ، وفتحها بنفسه ، وملأ بها اللقن الاحمر الكبير ..

كان يقول لهم ممازحا :

ـ يخرب بيت قلبكم .. ماذا تعملون في المطبخ .. واحد .. داخل .. وواحد خارج .. هل طلع على وجهكم .. كنز .. في هذا المطبخ ..

ثم يضحك سعيدا من اعماق قلبه .. وينهض من وقت لاخر وبشيء من الخجل ، بناء على طلب الشباب ، فيرقص ربع ساعة من الزمن على وقع دقات الطبل ، ملوحا بيمناه بالمحرمة .. البيضاء.. بينما يتعالى الصياح :

ـ شيخ الشباب .. ابو احمد .. ويهتف الطبال :

ـ شابوش .. شاباش .. يا بيت المداراتي ..

بينما يخرج ابراهيم الرواس .. مسدسه (الجزرة) ويضرب منه .. ثلاث فشكات تاركا الاربع الباقيات لآخر السهرة .. وهو يصيح : لعيون الله وعيون الشباب .. فيطلع حماده حمامي .. بموال (شركاوي) : احبابنا بالهنا عادوا لاحبابهم .. وتطلق ام احمد من المربع الفوقاني ثلاث زغرودات طويلات ، فتستجيب لها اربعون امرأة متجمعات حولها وراء الشبابيك المغطاة بالستائر السميكة ..

ثم ان احمد اخذ يحدث ابناء الحارة وهم جلوس على كراسي القش الواطئة في باحة المنزل الواسعة عن تجربته في خدمة العلم ، وكيف انه يقضي خدمته الآن في الجبهة امام اراضي فلسطين المحتلة، وكيف انه يراقب الصهيونيين كل يوم ، ويتمنى لو يسمح له الملازم ليطلق كم (مشط فشك) على هؤلاء الغادرين .. عله يروي ظمأ قلبه الى الفتك بهم وطردهم من فلسطين الحبيبة .. وكان احمد يتابع حديثه قائلا لمن حوله من الشباب :

ـ غدا .. تلتحقون جميعكم بخدمة العلم ، وتذهبون الى الجبهة، ونكون .. نحن .. في الجيش ، قد هيأنا انفسنا ، لتحرير فلسطين، ولا بد عند ذلك .. من ان نهجم عليهم بعد ان تحضروا جميعكم .. قلت للملازم مرة : سيدي الملازم انا وعشرة من اولاد حارتي نسوق الصهيونيين امامنا مثل الكلاب .. ولما سألني عن حارتي .. قلت له : انها باب المقام بحلب ، فيها رجال مثل الاسود ، انا ابن الحاج امين مداراتي .. هل سمعت عنه ..؟ فلما اجابني بالنفي ، قلت له : لو كنت (حلبي) يا سيدي الملازم كنت سمعت عن الحاج امين مداراتي، واذا زرت حلب مرة .. شرفنا بزيارة (الاوضه) لتشرب قهوة الحاج امين مداراتي .. فلما سألني عن اوصاف ابي ، قلت له : عمره ستون سنة ، ولكنه مثل الحديد ، يهزم امامه (بالباكورة) ثلاثين رجل .. وهو يلعب .. يمسك بيده اليمنى البفلة السوداء التي تجر طاحونتنا في المدار فلا تستطيع البفلة ان تتحرك .. قلت له : ابي .. وعمره ستون سنة .. يصلح للحرب والقتال .. سالم مسلح .. فضحك

الملازم ، ضحك وهو يظن انني امزح .. مسكين .. هو ابن اكابـــر .. لا يعرف ان اولاد حارتي مستعدون للحرب ولو صار عمر كل واحـــد منهـم مئة سنة ..

كان احمد يحدث شباب الحارة بكل ذلك وهو يمد يديه الطويلتين فوق اكتافهم ، وكأنه يحضنهم الى صدره ، ثم يغمزهم بعينيه الزرقاوين ويهمس اليهم « اسمعوا ساقول لكم عن سر.. » فاذا اجتمعت رؤوسهم حوله .. وامتزجت شعورهم بشعره الاشقر الطويل .. رفع يده.. وبرم شواربه ، ثم نظر حوله ليتاكد من ان احدا من غير اصحابه لا يسمع كلامه ، وعند ذلك يهمس في آذانهم بذلك السر بصوت خافت:

ـ في ليلة ما فيها ضوء قمر .. نهجم على هـؤلاء الصهيونيـين المجرمين .. ونصفيهم باذن الله .. باربع وعشرين ساعة ..

ويهتفون جميعهم من قلوب فرحة :

ـ لعيون اللـه ..

ويقفز حماده حمامي، فيضرب ما بقي في مسدسه من الفشكات.. وعند ذلك يرفع احمد صوته هاتفا : ـ ضروري ان تكونوا جميعكـم معنا .. ساكون انا .. صرت برتبة رقيب .. وانتم معي .. تؤلفون مفرزة ..

فيهتفون جميعا متحمسين : ـ لعيون ابو امين ..

بينما يتابع احمد كلامه منفعلا : ـ الله يخليكم .. الواحد يعرف كيف يعتمد على اولاد حارته .. الحرب .. مـا هي .. هينـة .. الحرب يلزمها رجال مثل الاسود .. ستاتون ان شاء الله في السنة القادمة .. فاقول للملازم : « انظر الى اولاد حارتي ، كيف يهجمون على النار مثل السباع .. وعند ذلك سيتركوننا عليهم .. فنذهب ونصفيهم .. كل واحد منا بمئة .. منهم .. لعيون الله .

كان المجند احمد مداراتي يعيد مثل هذا الكلام على اصحـابه الشباب في صباح اليوم الاخير من اجازته .. وهم جلوس في مقهى حمدو قنينة المطل على شارع باب المقام الرئيسي ، بينما كان ابوه الحاج امين في طريقه الى سوق البالستان في المدينة ليبيع الشال العجمي الوحيد الباقي لديه بعشرين ليرة ذهبية من اجل الانفاق على المأدبة التي سيقيمها في المساء ، لجميع اولاد الحارة ولاصدقائهم من الحـارات المجـاورة بمناسبة سفـر ابنه لانتهـاء اجازته ..

قبل ان تنتهي خدمة احمد مداراتي باسبوع واحد ، وكان الحاج امين مع ابناء حي باب المقام يستعدون لاستقبال ابن الحي العائد الى اهله بعد ان ادى واجبه .. جاءت الاخبار ، في صباح يوم حزين ، بأن المجند احمد مداراتي سقط .. ضحية الاعتداء الغادر الذي قام به الصهيونيون على احد المخافر الامامية في الجبهة والذي استشهد فيه ستون مـن الجنود ، ووقع في الاسر اكثر من عشرين .. حمل الخبر احد ابنـاء الحارة العائد من قلب المدينة ، والقاه في وسط مقهى الحارة . فساد الصمت ، وتوقف لاعبو الطـاولة عن لعبهم .. وجمدت (قمجات) النراجيل في افواه المدخنين ، ثم نظر الجميع حولهم بعيون تعيسة، ولكن الحاج امين لم يكن قد نزل من منزله بعد .. فمـا العمل .. وهتف واحد : « الله وكيلكم .. سيقتله الخبر » وبكى احد اصحاب احمد من الشباب : « يا اسفي على شبـابك يا احمـد .. يا زين الشباب » وهب ثالث وهو يهتف : « ليس الان وقت البكاء .. يجب ان نتدبر امرنا مع الحاج امين .. كيف ننقل اليه النبأ » .

ولم تستمر المناقشة اكثر من ربع ساعة .. استقر راي الجميع بعدها .. على ان يسبقوا ويقولوا للحاج امين : ان ابنه احمد قـد وقع في الاسر .. ثم بعد ذلك يتدبرون امرهم .. فيبلغونه الخبـر بهذه الطريقة على عدة مراحل تفاديا للصدمة التي يمكن ان تقتله .. فورا .. وهكذا خرجوا اليه .. فراوه نازلا من البيت نحو المقهى.. وبكثير من الارتباك والقلق استطاعوا اخيرا ان ينقلوا اليه الخبـر .. ثم-وقفوا يتطلعون اليه .. مرتجفين خائفين ..

اصفر وجه الحاج امين .. ثم شحب .. ثم ابيض .. ومد يده فاستند الى الجدار .. ولاحت في عينيه فورا نظرة تشبه الرجاء .. بان لا يكون الخبر صحيحا .. ثم تبدلت الى ما يشبه التوسل اوالرجاء.. وضع يده على صدره واكفهرت ملامحه .. وقفزت الى جميع وجهه.. معالم الم هائل .. ثم اخذ يهمس : آخ يا خيو .. آخ .. يا احمد » كان في داخله شيء ما .. يتمزق بعنف وسرعة .. وهو يجاهد نفسه للتغلب عليه .. فامتدت اليه ثلاثون يدا تسنده .. وتقوده الـى كرسيه العالي في صدر المقهى .. وذهب احد اصحابه فاحضر قمقما راح يرش منه ماء الزهر على وجهه .. حتى صحا .. اخيرا .. وتطلع فوجد اكثر من خمسين رجلا من ابناء الحارة مجتمعين .. حوله .. وعند ذلك .. استقام في جلسته وسعل .. ورفع يده فمسح علـى شواربه .. ثم ابتسم .. وبين دهشة الحاضرين .. اخذ يضحك.. ويضحك وهو يقول :

ـ اسير .. اسير .. يا عيني على فهمكم .. هذا غير ممكن .. ابني لا يمكن ان يقع اسيرا .. ابني لا يمكن .. ان يسلم نفسه ابدا.. الا اذا كانت له غاية .. قال : اسير .. قال .. يا عيني عليكـم يا (فهمانين) .. لقد دخل معهم .. حتى يلغمهم .. انها حيلة .. علمته اياها بنفسي وهو صغير.. كنت اقول له : يا ابني افتح عينيك.. وافهم .. الالمان كانوا يتظاهرون بالتسليم .. ويسيرون مع الانجليز ثم يهجمون عليهم ويشلحونهم السلاح ويذبحونهم .. غدا .. تسمعون اخبار احمد لقد دخل معهم حتى يلغمهم ، سترون كيف ينسف اسرائيل ويعود الينا ، يا عيني عليكم .. ما افهمكم .. اذا قلنا : لعبة احمد فاتت على اليهود فكيف تمشي عليكم يا مساكين ..

وراح يضحك خلال نصف سـاعة وهو يسحب نفس النرجيلة مرددا « يا مساكين ..!! »

وظل هكذا يوما بكامله .. حتى بلغه الخبر الرسمي في المساء بواسطة قيادة الجيش ، فاطرق برأسه الى الارض ربع ساعة من الزمن ثم اخذ يتمتم :

ـ الم اقل لكـم ان ابني احمـد لا يمكن ان يسلـم نفسه للصهيونيين ..!

وعندما رفع وجهه .. راى ابناء حي باب المقام لاول مرة في حياتهم الحاج امين مداراتي وهو يذرف من عينيه دموعا غزيرة ظل يغالبها حتى غلبته على امره ، فاستسلم دفعة واحدة .. الى بكـاء مرير .. عنيف .. وهو يتمتم من خلال نشيجه :

ـ لا بد ان يكون قد قتـل عشرين منهم .. قبل ان يقتلوه .. لا بـد .

حلب — اديب نحوي

دراسات ادبية

من منشورات دار الاداب

نزار قباني شاعرا وانسانا	لمحيي الدين صبحي
قضايا جديدة في ادبنا الحديث	للدكتور محمد مندور
في ازمة الثقافة المصرية	لرجاء النقاش